

المهدي بنبركة وقضايا التحرير في العالم الثالث

بقلم : مصطفى القرشاي

ظاهرة غير صحية لابد من تسجيلها

في خريف هذه السنة يكون قد مر على جريمة اختطاف المناضل الاتحادي البارز ، الشهيد المهدي بنبركة من قلب العاصمة الفرنسية باريس ، عقد ونصف ، وبالرغم من مضي خمسة عشر سنة على تنفيذ عملية الاختطاف ، التي يدل حبكها الدقيق ، على تعاون عدة اطراف كلها معادية للتحرر والتقدم ، فان نضال المهدي وابداعه الفكري والسياسي ، لم يحظ من لدن الدارسين بالاهتمام الكافي .. ان هذا التقصير ازاء عطاء المهدي بنبركة لا ينال باى وجه من الوجوه من مكانة الشهيد النضالية، ولا بطمس دوره اللامع الذى تتبناه بجدارة داخل حركة التحرر العالمية ، لكنه يشير ، الى ان اتقوى التقدمية ، وفئاتها المثقفة بالخصوص ، قلما تستفيد من تجارب المناضلين البارزين ، ومن ثم تضع الحركة النضالية التقدمية من امكانية الاسترشاد بالخبرة الحية والتجربة التى يلتحم فيها الفكر بالواقع .

ولا مجال للتأكيد هنا ، ان التقصير فى الاستفادة النقدية الواعية من تجربة رواد حركة النضال التحررى امثال المهدي ، يكاد يكون

أحدى الخاصيات المميزة للسلوك الفكري لدى القوى التقدمية فى العالم الثالث ، وهذه اظواهره ليست بصحبه ، ولا يمكن الا ان يدل استثمارها على وجود تفرقة فى الصرح الايديولوجى لقوى التغيير وأتقدم ، وحينما تتعامل قوى اسلمدم . مع ترات مناضليها هذا التعامل السلبى ، فهى تحرم نفسها من دروس تينة من العمل السياسى والثقافى ، دروس مبنثقة اساسا من الواقع المشترك ، وموجهه بالذات الى استيعاب معطياته ومهم قوايين تحركه . على عكس شمولية تهدف الى تحريره وتغييره ، بمعنى ان اهمال التجربة من النوع الذى تقدمه حياة المهدي ، هو اهمال للجهد المبدول طوال السنوات للنفاد بعمق الى الواقع المجتمعى فى العالم الثالث بمعطينه المتميزه .

هذا القصور والتقصير ، يظهر اقوى ما يكون الظهور فى عالمنا العربى ، وداح فواد اسلمدميه ، محد ان لم تهر دراسه جاده وشامله ، تبرز اسهامات الشهيد فى مختلف مجالات النشاط الوطنى والقومى ، الفكرى والسياسى ، بينما حظى غيره باهتمام سلبى عالى . مع انهم قد يسيون «سيد» الى احببه اصصاليه العربيه ، وعلى نفس مستوى التعامل السلبى نجد ايضا اسما اخرى . مثل سوكرانو ، وموديوكيتا ، وكروما ، وبنو ان هؤلاء جميعا يحتفلون عن المهدي ويختلف المهدي عنهم .

على ان الاهتمام بالشهيد ، ليس المقصود به الارضاء الذاتى ، او التمجيد الشخصى . ان المهدي لو كان فى وسعه ان يدلى اليوم براهيه ، لكان اول من يقف فى وجه تعامل من هذا النوع ، ولدعى بتلك الحيوية المعروفة عنه بان المطلوب ، هو استخلاص العبرة من مسيرته النضاليه بعد تفحصها تفحصا موضوعيا ونقديا ، وتشخيص ما تطوى عليه من ايجابيات وسلبيات ، وابرار ما امكثا ان تحققه من انتصارات ، او تتكبده من خسائر وانهزاهات ، ذلك ان حياة المهدي المتطورة عبر النضال ، ما هي الا الترجمة الذاتية لتطور المجتمع انذى عاش فيه ، ولتحول الاستعمار ذلك التحول الذى فرضه كفاح الشعوب ، وفرضته تغييرات المجتمع الراسملى نفسه ، تغييراته التقنيه والثقافيه ، والبنويوه ، وتعبير آخر ، ان حياة المهدي النضاليه ، هي مدخل

التي حياة حركة التحرر الوطنى ، والى معرفة كيف جابهت هذه الحركة الاساليب التى استخدمها الاستعمار عندما كان استعمارا مباشرا ، او عندما اصبح استعمارا مقنعا ، والى الوقوف على مصادر الضعف الذاتى الذى كان يشهد حركة التحرير الوطنى عن تحقيق الانتصار الحاسم على القوى الاستعمارية ، او يجعل من الانتصارات الجزئية معبرا للزيد من المكاسب الملموسة ، حياة المهدي اذن ، هي محصلة ومرآة لحياة الجماهير فى العالم الثالث وهي تخوض الكفاح من اجل الاستقلال السياسى ثم وهي تخوض الكفاح من اجل اعطاء الاستقلال مضمونا تقديما شعبيا يتحقق بفضلها التحرر الحقيقى من التبعية والتخلف ...

الحوار بين الخاص والعام

اول ما تتميز به حياة المهدي بنبركه ، هو ذلك الحوار المستمر بين ما هو خاص وما هو عام ، فالهدي الذى تتبع بالثقافه المعاصره ، لم يسمح بان تصبح ثقافته الغربيه استلابا يعتمد به عن تاريخ بلاده الفكرى والحضارى ، بل عرف كيف يجعل ، من استيعاب الفكر المعاصر فى تجلياته العلميه ، ومناهجه العقلانيه ، اثره لثرائه القومى والوطنى فى مضمون الثقافة ، فكان بذلك مثالا حيا ، على ان التعارض بين الاصله والمعاصره هو تعارض ايدولوجى سياسى ، لا ثقافى علمى ، وعلى ان الاشكاليه هذه قابله للحل كلما فهبت فى اطار الجدلية الحيه بين وطنيه المعاصر ، وتقدميه الاصيل ، بين خصوصيه العالمى ، وعالميه القومى ، هذا الحوار الذى ظل يجريه المهدي بذكاء على المستوى الفكرى ، اجراه ايضا على الصعيد السياسى من خلال محورين : المحور الاول داخلى وطنى ، والمحور الثانى وطنى اممى . تبلور الحوار على المستوى الاول من خلال الربط الجدلى بين القضية الوطنيه والقضية الاجتماعيه ، فالنضال الوطنى كان الاداة والطريق لحل اشكاليه التخلف ، والنضال فى سبيل ترسيخ التحرر الاقتصادى والثقافى والاجتماعى ، كان السبيل اللازم لدعم الاستقلال الوطنى ، والخروج به من نطاق الاستقلال الشكلى الذى يخدع بظواهره قيام التبعية الفعليه . اما على المستوى الثانى عند تبلور الحوار من خلال ادراك الشهيد للبعد التقدمى الاممى

في الكفاح الوطني ، وادراكه للبعد الوطني في الكفاح النضالي العالمي ، فمضي يجعل من النضال الهادف الي دعم الاستقلال في الداخل سبيله الى مواجهة الامبريالية والاستعمار الجديد ، ويجعل من تنسيق النضال المعادي للامبريالية والاستعمار الجديد طريقه الى دعم الاستقلال الوطني . ان هذا الارتباط الجدلي بين النضال الوطني والاممي ، هو الذي فسات ادراكه العديد من الحركات التقدمية والديمقراطية ، خلال فترات محددة من التاريخ المعاصر . ولم يكن لتلك الحركات التراجع عن هذا القصور ، الا بفضل جهود دؤوبة بذلها المهدي وامثاله من مناضلي العام الثالث البارزين . لكن اهم حوار انتهى المهدي الي اجرائه ، هو ذلك الذي يهم شمولية النظرة وخصوصية التحليل ، ان اهتمام المهدي ينصب دوما على انواع الشخص بتجلياته للموسم ، لكنه حينما يعالج واقع المجتمع المغربي او الانريقي او العربي او الامريكي اللاتيني ، فذلك بمنهج كلى هو بالذات المنهج العلمي ، الذي توجهه رؤية شمولية تتبين بوضوح استراتيجية الاستعمار ، وطموحات الجماهير وافاق نضالها .

المجرد لدى المهدي كان هو المنهج والرؤية ، اما الموضوع فقد كان دوما هو الواقع المتشابك الديناميكي ، ولم يكن في هذا الربط بين عمومية مجرد ومحدودية الشخص يريد اثبات الانتماء الي مدرسة فكرية معينة ، ان ما كان يهيمه اكبر من اثبات «الهوية» الفكرية ، لقد كان يهيمه النفاذ الي الواقع ، ومن ثم التحكم في سيرورته وتغييره .

الانقلاب المضاد

وقد جابه المهدي في حياته النضالية قضيتين ، هما من القضايا البارزة في مسيرة شعوب العالم الثالث نحو التحرير ، فالجماهير الشعبية التي كافحت كفاحا مستميتا في سبيل الاستقلال ، هي التي لم تنعم بثمار الهدف الذي كافحت في سبيل احرازه . والاقلية في المجتمع الحديث العهد بالاستقلال ، هي التي تمكنت من الاستيلاء على زمام السلطة في هذا المجتمع ، لاشك ان ثمة ارتباطا واضحا بين الانقلاب الذي انجزته الاقلية غداة الاستقلال لتسرق قيادة المجتمع من الاغلبية الشعبية وبين تسخير الاستقلال لفائدة

الاقلية وحلفائها . ولم يكن هذا الارتباط ناخلا في عملية سياسية محدودة ، بل هو نتيجة للمرحلة التي انتهى اليها الاستعمار عندما وجد نفسه مضطرا الي تغيير اساليب عمله ، وتكييف خطه مع تصاعد الكفاح الوطني للشعوب . لكن بقدر ما كشف الانقلاب المحدث ضد الجماهير عن «ذكاء» القوى الاستعمارية ، وهي تتظاهر بالتراجع امام نضال الشعوب التواتة الي الاستقلال كشف ، وبكيفية اوضح عن الثغرات التي كانت تتخلل نضال حركات التحرير وهي تسعى جاهدة لنيل حقوقها الوطنية ، فهذه الحركات التي لم تكن متجانسة اجتماعيا ، ولا تتوفر على مشروع حياتي يوجه نضالها البعيد المدى ، كانت قد تركت قيادتها للفئة البورجوازية ، التي سرعان ما تحالفت مع فلول الاقطاع ، والبيروقراطية المتخلفة لتسلخ فيها بعد عن القاعدة الشعبية العريضة ، وتركن الي القوى الاستعمارية ، واذا كانت بعض الاقطار قد واصلت النضال التحرري لجماهيرها الشعبية بقيادة افرزتها من صفوف الفئات الكادحة ، فان اكثرية اقطار العالم الثالث وجدت نفسها من جراء ظروفها التاريخية تقف عند خيبة امل الاستقلال المغشوش قبل ان تستأنف كفاحها ضد قوى المحافظة المرتكزة الي الحليف الاستعماري .

من المحقق ان وراء «الضعف الذاتي» الذي ساعد علي حدوث الانقلاب المضاد غداة الاستقلال شروطا تاريخية اجتماعية وفكرية . ناطبة العاملة التي نشأت مع الاستغلال الراسمالي للصناعة والزراعة لم تكن قد وصلت الي مرحلة من الوعي بذاتها ولا بطموحاتها المجتمعية تمكنها من تبوا المكانة التي تؤهلها لها طاقاتها الكامنة في مسلسل النضال التاريخي ، وقد رافق بقاء الطبقة العاملة متأثرة بشروط الحياة القروية ، ومحاصرتها خارج الاطار النقابي للعمال الاجانب ، عدم احتكاكها بالفكر التقدمي الاشتراكي الذي كان يجتاز انذ فترة من الجمود ، جعلت الجانب الذي يصل منه الي العالم اناسث يطرح قضايا تنفر منه شرائح واسعة من الجماهير اكثر مما تنجذب اليه . ان التعارض الذي قام بين الفكر الاشتراكي وفئات واسعة من جماهير العالم الثالث ، كانت مميزة طغيان الجانب العقائدي الجامد على الثرات الاشتراكي في الفترة الستالينية ، وهو تعارض كانت تغذيه ، القوى المحافظة في الحركة الوطنية ، وايضا

الموى الاستعمارية التي كانت تدرك عمق المشاعر الدينية لدى جماهير العالم الثالث الشعبية . فكيف اذن واجه المهدي ظروف هذا الانقلاب الرجعى ؟

المشروع النضالى

ان المشروع النضالى الذى اقترحه المهدي ، فى مواجهة اجهاض الاستقلال على مستوى العالم الثالث ، قد امتاز بالعديد من الخصائص ، فهو لم يكن جامدا فيقصر عن ملاحقة التطورات التى يتكشف عنها الواقع بمتغيراته المتنوعة . وهو لم يكن ذهنيا فلا ينصت لحقيقة الصراع المجتمعى ، ودينامية هذا الصراع فى بعده المحلى والدولى ، واكثر من هذا فان مشروع المهدي ، فى مجال النضال ، لم يكن يستمد تبريره من حتمية «عمياء» قدر ما كان يعول فى تحققه على فعالية الإرادة الواعية ، كان الشهيد يعطى بنفسه المثال على ضرورة توفرها .

وهكذا فمن تشريح دقيق لمكونات المجتمع الطبقي تبيين ، ان الحلف التاريخي الذى قام خلال فترة الكفاح من اجل الاستقلال بين القوى الشعبية ، لم يستنفذ اغراضه بعد فى الجوهر ، لكن الظروف الجديدة تفرض عليه ادخال التعديلات المستخلصة من دروس التجربة ، فالقيادة ينبغى ان تكون فى يد القوى الشعبية ذات الامسق الثورى ، والنضال يستلزم ان يجرى فى وضوح تام ، وضوح الهوية . والاساليب والاداة ، ومرحلية الغايات .

مرتكان لابد من توفرهما لجعل المشروع النضالى يمتلك القوة المادية لتحقيقه : التمكن من جعل الاداة النضالية الاطار التنظيمى لبلورة وحدة الاتجاه والعمل لجماهيرية التحالف ، ثم ضمان تحقق الانخراط الفعلى لنضال الطبقة العاملة فى مجوع النضال التحررى . ان المهام التي كانت تواجه حركة التحرير سياسية بالاساس ، مهما كان التعبير الظاهرى عنها فى بعض الاحيان يميل الى هذا اللون او ذاك ، وقد تنبه المهدي الى هذه الحقيقة فظل حريصا على ان يبقى جوهر المشروع النضالى المقترح من لدنه مطابقا لنوعية المهام القائمة فى الاجلين المتوسط والبعيد ، عناصر المشروع الذى

ياخذ بالاعتبار ضمان امكان التنفيذ تستقطب القوى الطموحة فى البداية من خلال الاحاح على ضرورة الاصلاح الزراعى ، وجماهير المدن الكادحة عن طريق تصفية مظاهر الهيمنة فى الصناعة والتجارة ، فى افق اقامة علاقات اشتراكية للانتاج والتبادل والتوزيع للخيرات .

وضمن هذا المشروع النضالى تحتل الجماهير المكانة الاولى ، نلكى تنخرط بفعالية وحماس لا مفاص من ان تكون مصدر القرار، وصاحبة السلطة فى المراقبة والمراجعة والتنفيذ ، وعلى الجماهير وهى تعمل لانجاز مشروعها ان تهمسك دوما ببعيار مصلحتها لتمييز بين ما يقدم من اجل تكييل خطاها ، وما يرمح فعلا للاستجابة الى مطامحها العميقة ، لكن المشروع يبقى قاصرا اذا لم يعتبر من شروطه ، الانفتاح على قوى التحرر ، فى افق تكون من غاياته بناء وحدة تدريجية ، خطواتها الاولى تلك التى تتجسد بين اقطار المغرب العربى .

مرتكات المشروع النضالى الذى يقترحه الشهيد المهدي تتمحور اذن حول اهداف التحرير والوحدة والديمقراطية المتجهة الى المطمح الاشتراكي . وقد كانت قناعة المهدي راسخة بالتحصام هذه الاهداف ما دام الاستقلال الذى تحقق لشعوب العالم الثالث لم يحسم ايا من الغايات الجوهرية ، لا فرق فى ذلك بين اتهام التحرير انرابى او تصفية الاستعمار الذى ازداد تغلفلا رغم تراجمه المظهرى، علاوة على ان هذا الاستقلال المغشوش لم يات سوى باقصاء الجماهير عن مواقع التقرير لمصلحة كمشة من المرتبطين والمحظوظين . مع ترسيخ الحواجز الفاصلة بين شعوب القارات الثلاث التى يرتبط مستقبلها بالتوجه نحو اشكال الوحدة المتطورة ، هذه الوحدة التى اثبتت جدواها كلها تحققت خلال الكفاح المشترك ، ضد الاستعمار بشكاله المختلفة .

محور استراتيجية التحرير

وقد تنبه الشهيد وهو يقوم بتحليل عوامل نجاح الانقلاب المضاد الذى اجهض الاستقلالات الوطنية فى العديد من الاقطار الامريكية والامريكية اللاتينية ، الى الدور الذى يقوم به الاستعمار،

عندما طور اسانيب عمله ، وكيفها مع المرحلة الجديدة التي آلت اليها الامبريالية ، ان ثمة تجربة المغرب التي عاش المهدي دقتها بمعاملة الموجود في الصفوف المتقدمة للصراع ، لكن هناك ايضا تجربة الشعوب الافريقية من الكونغو الى الجزائر ، الي جانب المراحل التي قطعتها شعوب امريكا اللاتينية وبلاستناد الي هذه التجارب الملموسة والغنية ، فان التغلغل الاستعماري عبر الصناعة والثقافة والتبادل التجاري وتكوين الاضر ، والامداد بالخبر والمساعدة ، لا يعني ان الاستقلال الذي كان ثمنه بضحيات جسام ، هو استقلال معشوش فحسب ، بل أكثر من ذلك يدل ، علي ان المعركة ما زال مع القوى الاستعمارية التي تشكل السند الاساسي للتحالف المحلى بين القوى الرجعية ، وباعتبار هذه حقيقة واضحة في سياق العاصم الثالث التاريخي ، فالنتيجة العملية المستخلصة منها هي جعل استراتيجية النضال تستهدف اضعاف القوى الاستعمارية ، في الوقت نفسه الذي تروم عزل القوى الرجعية عن سندها الخارجي ، وفي اضرار هذه الاستراتيجية التي تجعل محاربة القوى الاستعمارية محورها الاساسي ، لأبد للقوى الثورية في العالم الثالث من ان تلحق ، توسيع دائرة التحامها ، بخضق جبهة موسعة للتصامن . يكون العمل الفعال والسبق هو المظهر التعبيري عنها ، ان هذه الجبهة ضرورية في مواجهه الجبهة الامبريالية ، والابقي التثنتت منفذا ، من المحقق ان القوى الامبريالية تعرف كيف تستغله لصالحها .

علي ان ارتقاء نضالية المهدي الي هذا المستوى الشمولى من ادراك حقيقة العصر وسهات التناقض الاساسية فيه ؛ ليس هو وحده خلاصة تجربته ، وهو منغمس في خضم الكفاح التحريري ، بل قادته نفس التجربة ، الي ان الاصعب من ادراك ملامح الاستراتيجية الاجمع لمواجهة الاستعمار الجديد ، هو توفير شروط تحقيق هذه الاستراتيجية الواقعية . ولم تكن المصاعب التي تقف في طريق تكوين جبهة النضال المعادي للامبريالية والاستعمار منبعثة فقط من مناورات واعمال قوى القهر والاستغلال الخارجية والداخلية ، فهذه طبيعية مادام مصدرها الطرف المعادي في الصراع التاريخي ، بل لقد اصطدمت استراتيجية التحرير الشمولى بعوائق مبعثها قوى تشكل فيصلا اساسيا في معسكر قوى التقدم والتحرر ، ان الفريق

انتدمى الذي كان يتبين ان اساس التناقض في المرحلة التاريخية القائمة ، هو بين بورجوازية البلدان الراسمالية ، والقوى البروليتارية ، كان يترجم ذلك علي الصعيد العملى الي ابقاء «التصامن» محدودا في الاطار القطري ، هو بالذات القطر الغربي الراسمالي وفي ذات الوقت جعل استراتيجية بناء الدولة القوية في مركز الاولوية ، علي الانخراط بالامكانيات المتاحة في جبهة النضال المتسدة والشاملة . ولم تفقد حركة التحرر في العالم الثالث من جراء هذه الرؤية دعم جزء من القوى الثورية لها فحسب ، بل وجدت نفسها في بعض الاحيان ، تنسغل في عملية «اقتناع» لطفائها التاريخيين دون ان تفنح في جذبهم الي الميدان العملى للصراع ذي الطابع الشمولى ، والادهى ، انه في الوقت الذي كانت فيه قوى الشر والاستغلال ترتفع بمسنوى نضالها المعادي ليشمل شتي الميادين ، تعرضت جبهة قوى التقدم لشرخ كبير ، عاد بالضرر علي حركة تحرير العالم الثالث ، عندما خرج الصراع بين تطبيبي المعسكر الاشتراكي من حدود الجدل الايديولوجي ، ليصبح متلبورا في خطط عملية ، وبرامج سياسية ، تستلهم فئة منها التجربة الاشتراكية السوفياتية ورؤاها للظرف التاريخي ، فيما تستلهم فئة اخرى التجربة الصينية ونتائج تحليلها لنواقص العالمى . ان التطورات الحالية تشير انى مدى الخسائر الفادحة التي لحقت قضية تحرر العالم الثالث ، من جراء المصادمات التي انفجرت داخل المعسكر الاشتراكي ، واذا كانت تلك الخسائر قد تبلورت في المد الامبريالي الذي اجتاح القارات خصوصا سنة 65 ، فان اكبر افساح عن تلك الخسائر المموسة ، كون جبهة التحرر في العاصم الثالث ، لم تعرف لحد الآن وجودا فعليا ، لاعلى مستوى القارات الثالث ، ولا علي مستوى القارة الافريقية ، بل وليس علي صعيد العالم العربي كجزء من قارة . بل ، ان سقوط المهدي شهيدا ، وهو يجاهد من أجل الاعداد للفتى شعوب القارات الثالث بالعاصمة الكويتية ، اذا كان يدل علي الضرورة الملحة لاعطاء التصامن المنشود اطاره التنظيمي ، فهو يدل ، علي ان وصول يد القوى الرجعية والاستعمار ، الي المهدي ، قد سجل مكسبا اضافيا لغير صالح قوى التقدم والتحرر .

وينبغي ان نسجل هنا ، ان ما ادركه مبكرا الشهيد المهدي بالنسبة للانعكاسات السلبية المتولدة عن حدوث الشرخ في جبهة القوى التي شرعت تبنى الاشتراكية ، لم يدرك بالقدر الكافي الذي يومنا هذا من لدن العديد من حركات التحرير الوطني في العالم الثالث ، او ان ادراكه لم يؤد الى تقييم سليم تثبت عنه بدائل مهمة لتطويق تلك السلبيات حتى لا يحمل نموها رجحان توازن القوى لفائدة اعداء الشعوب ، ولا ينبغي ان تفسر هذه الظاهرة بالتبسيطة فتربطها بفقدان الاستقلالية وحدها ، بل هناك اكر من سبب ، قد لا يكون فقدان الاستقلالية الا ثانويا بالنسبة الى مجموع تلك الاسباب ، وانه ليجدر بقوى التحرر وهي تبحث عن سبل تقوية كفاحها ، ان تولى هذه المسألة العناية اللائقة بها ، ليس بهدف الوصول الى احكام تقييمية ولكن وبالذات ، من اجل تبيين الطريق الموصل الى جعل قضية التضامن المناهض لاعداء الشعوب ، ينبعث بكيفية فعالة ومنظمه ، ولعل التخلص من مظاهر الوعي الزائف الذي يحجب حقائق الواقع مهمة ملحة امام قوى التحرر في العالم الثالث ، وهذه قضية حانت دوماً احدى المشاغل التي ينصب عليها نشاط المهدي .

ان خبرة المهدي النضالية مع مختلف الجماهير الشعبية وهي خبرة عميقة وممتدة سواء في الزمان او المكان ، لم تمكنه بحسب من ادراك انطاقات الثورية التي تتوفر عليها الجماهير في تفاوت بين طبقاتها وشرائعها ، بل مكنته كذلك من تلمس المسارب التي من شان الوهن الفكري او السياسي ان يتسرب منها . لقد كسب المهدي ملما الملمة عميقا بالواقع التاريخي لمجتمعات العالم الثالث ، وساعده هذا الالهام المتبصر على ادراك عمق الاضطهاد والحيث الذي ران على الجماهير طوال اجيال ، واستمرار انار كل ذلك في وجدان الجماهير يؤثر فيها تأثيرا قد لا تدركه ، هذه الترسبات الكامنة والتي تحملها الجماهير معها كجزء من بقايا تاريخ ميزته التحكم والسيطرة وخلق النزوع الى الحرية ، كان في نظر الشهيد واحدا من المسارب التي قد ينفذ منها زيف الوعي ، ومن

هنا كان على الشهيد ان يجعل من التثقيف الاديولوجي المتواصل احدى وسائل تخليص الجماهير من مخلفات عصور التخلف والاضطهاد ، واعدادا لتثقيف الوعي الثوري ، الذي يعد شرطا للانخراط بفعالية في مسلسل الكفاح التحريري . وفيما كان المهدي ، يعتبر محاربه انوعى الزائف ، نقطة بارزة في برنامج النضال بالواجهه الاديولوجية والسياسية لم يقصر نضاله على مجابهة استمرار الماضي في الحاضر به اهتم ، الي جانب ذلك ، بالتضليل الذي تقوم به القوى الاستعمارية والرجعية ، بهدف تحريف الوعي او تسطيحه . ومن منطلق نضالي ثابت تصدى الشهيد لتعرية المضامين الرجعية ، والمخنويات الاستغلالية لبعض الشعارات التي تلوح بها القوى المحافظة او الاستعمارية ، وهي تواصل تكييل طاقات التحرر الشعبية ، وتعد دراسته عن اسرائيل نموذجا للجهد الكبير الذي ظل يبذله لكي يسيطر الاستنار عن الزيف ويجعل الحقائق واضحة . وقد سجل وهو شخص ، بتحليل نفاذ ، آلية الدور الذي تقوم به اسرائيل كاداه للاستعمار في العالم العربي وافريقيا ، كيف ان العديد من القادة الافارقة انخدعوا بالتجربة الاسرائيلية في ميدان «التنمية» على النحو المموه الذي كانت تقدم بها اليهم .

وقد كانت نظرة المهدي التاريخية لتطور اساليب العمل الاستعماري ، تستند الى قناعة بأن الاستعمار اصبح يتوفر على وسائل لتزييف الوعي لم تكن متوفرة له في السابق . ان الاستعمار الذي استفاد من التكنولوجيا في السيطرة المادية والاقتصادية ، قد سخر التكنولوجيا أيضا في مضمار اعاقه الوعي التحرري لدى الجماهير الشعبية ، وكان يعلم ان حظ حركات التحرر من الوسائل الجديدة بمواجهة عمل قوى الاستغلال ، محدود اذا ما قيس بما يتوفر عليه التحالف الرجعي الاستعماري ، لذلك لم يكن امام حركات التحرير لكي تحقق ايات ملموسة في هذه الواجهة سوى مضاعفة جهدها الدؤوب ، طبقا لمخطط يتم تنفيذه بفعالية وحزم ودراية . وكان الاهتمام بالحزب من لدن المهدي ذلك الاهتمام الشمولي مرتبطا في وعيه ، بانه الاداة الضرورية لتغيير عدم التكافؤ في الوسائل والامكانيات على هذا الصعيد .

والظاهر ان رؤية المهدي للحزب كانت اكثر عمقا وشمولية مما نجده عند بعض قادة حركة التحرر الوطني ، انه بالنسبة

مصريا لا هوادة فيه فليس مقصورا على جبهة واحدة ، او ميدان مفرد ، بل يشمل ، جميع الجبهات والميادين التي يتواجد فيها اعداء الشعوب ، والصراع حينها يكون بهذا التنوع وهذا الاحتدام ، وليس دوما سيرا على خط مستقيم ، بل يتحمله الكر وانفر ، المد وانجزر ، التقدم خطوة ، وارتجاع خطوتين .. والمناضل الثورى هو ذلك الذى يعرف متى يكون التقدم ، وفى اى وقت يلزم التراجع ، وان يجعل من العمليتين دفعا متواصلين لعجلة التغيير انجدرى . والحرير انشمولى ، فلا يفتر مع انتصار مؤقت ولا يياس مع انهزام طرمى . وفى انتقائه من وثبة الي وثبة واطافة لفوز لاحق على نصر سابق على المناضل ان يكون مستعدا للجمع بين الشهادة والاستشهاد ، الشهادة على جليله وقضاياه ، والاستشهاد فى سبيل القضية التي التزم بها ، واعطى جهده وعرقه من أجل نصرتها على نحو ما فعل المهدي منذ خمسة عشر سنة حيث ما تزال معالم السان جرمان آية على تلك العمالية الاجرامية التي غاب معها المهدي هزيولوجيا ، بينما سوف يظل حاضرا ككفر وكفضل وكتاريخ ملهم وكتجربة مرشدة ، سواء بالنسبة لجيلنا او ببالنسبة للاجيال القادمة ، ليس فى المغرب وحده ، بل فى مجموع الاقطار ، ولا سيما اقطار العالم الثالث التي عرف المهدي كيف يجعل من قضايا تحريرها جزءا من قضية تحرير وطنه وشعبه .

انيه ، اكبر من اداة نزيل السلطة او المحافظة عليها ، وليس وسيلة لمرض توجيهه وتاطير المجتمع لصالح سياسة ياتي وضعها من اعلى . انه لا يشكل بديلا عن الطبقة او الجماهير ، بل الحزب فى منظور المهدي هو الاطار الذى ينطلق منه الاشعاع النموذجى للسلك الذى ينبغى ان يعم مختلف فئات المجتمع ذات المصاحبة فى التحرر الشامل ، فلا مزية للحزب على الجماهير الا باعتباره نواة الاشعاع الذى يوصل الوعى والارادة والظهور المستقبلي لشرائح المجتمع التي عليها ان تنخرط فى عملية البناء الحضارى القائم على مشروع حياتى جديد ، يتحقق من خلاله التقدم الانسانى الشامل وكان المهدي على يقين ، انه بدون الحزب الثورى سوف يبقى مشروع المجتمع الجديد مجرد امانى وآمال عاطفية ، غير ان الحزب الذى سيكون مؤهلا لبناء المشروع المراد ، ويضمن تطوره التاريخى ، هو ذلك الذى يلتحم بجماهير شعبه انتحاما قوامه التجاوب العريض ، والترابط الفكرى والسياسى والاخلاقى .

المهدي الشاهد

من هنا يبقى المهدي ليس شهيدا فحسب ، بل شاهدا كذلك ، ساهدا على ان الاجيال الثلاثة التي عاصرته قدر استطاعت ان تطبع نعصر بارادتها ، فاذا هو عصر الكفاح من أجل التحرر ، واذا التحرر يعنى ارتباط السياسى بالاجتماعى والداخلى بالخارجى ، والفوقى بالاعدى ، ويبقى التحرر مشوها ما لم يحن قيام مجتمع اشتراكى يكون من صنع جماهير الكادحين وتصميمهم ، وكما شهد المهدي على ان العصر عصر التحرر فقد كان شاهدا كذلك ، على المعاناة التي رافقت شعوب العالم الثالث ، وهى تحقق الانتصارات وتكبد الهزائم ، دون ان تعنى انتصاراتها انتزاع كائفة المكاسب ، ودون ان تقود الهزائم الى الاستسلام امام قوى الشر المتربصة بها.

على ان اكبر قضية سيظل شاهدا عليها ، هي ان تحرير المجتمع ليس عملا ظرفيا وليس عملا بسيطا ، بل عمل نضالى تاريخى مريـر . نضال مع الذات ومع بقايا التاريخ السلبية ، ثم هو نضال مع الغير من اعداء مكشوفين واخرين مستترين ، وباعتباره نضالا